آيات القرآن

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

[هود: ١]

قلت: ماذا تفعل؟

قال: أفكر.

قلت وأنا أجلس: وفيم تفكر؟

قال: فى آيات القرآن.

قلت وأنا أقلب فى الكتب المتناثرة أمامى: دواوين شعر، كتب أمثال وحكم، قصص، خطب وأسفار التوراة والإنجيل.

قلت: ما كل هذا؟

قال: ما إن تركتك المرة الماضية حتى قفزت إلى عقلى فكرة مثيرة.

قلت مبتسماً: فكرة مثيرة! ياللهول!!

قال: إن آيات القرآن وجمله قائمة على الميزان الدقيق والاختيار المتناسق للكلمات فى كل شىء: المعنى والإيحاء والأثر والصوت والصورة واللسان والحركة فيه.

قلت: أهذه هى فكرتك المثيرة؟

قال: لا تتعجل! إن الفكرة المثيرة التى هبطت على هى: لماذا لا أحاول أن أقلد القرآن ولو فى جملة واحدة؟

قلت: تقلد القرآن؟!!

قال: نعم. جملة واحدة أتخير كلماتها وأنسقها وأوازن بينها وأحبرها تحبيراً وأزينها تزييناً.

قلت ساخراً: فاين هى هذه الجملة أيها العبقرى الفلتة؟ أرنيها لأعرف إلى أين وصلت؟

قال: هذه هى المسألة، فأنا لم أصل إلى شىء لأننى لم أبدأ قط.

قلت: وما الذى منعك أن تحاول؟

قال: ومن قال إنى لم أحاول؟! قلت: أفتح المصحف على أى صفحة وأقلد أول آية تقع عليها عيناى. وفعلت.

قلت: وجئت بالمعاجم فانتقيت وتخيرت وحبرت وزينت.

قال: بل لم أفعل شيئاً. فقد أحسست وأنا أقرأ الآية كأن أسواراً شاهقة وجدراً محصنة تعزل الآية عنى فلا أستطيع الوصول إليها.

قلت: فهمدت وسكت!

قال: بل قلت أجرب مرة أخرى. فانتقلت إلى آية ثانية وثالثة وعاشرة وفى كل مرة ينتابنى الشعور نفسه هو هو لا يتغير.

قلت: بينك وبين الآية حاجز لا تستطيع أن تعبره.

قال: أما الذى أعيانى وأضنانى ولم أكشف له سراً: أين هو هذا الحاجز بالضبط. فى الكلمات.. فى التناسق والترتيب؟

لا. ليس شيئاً من هذا.

قلت: لم لا يكون كل هذا؟

قال: لأنى رأيت هذا الحاجز فى نفسى وحجبتنى هذه الأسوار وأنا أقرأ الآية وأرددها قبل أن أنظر دقتها وتناسقها، بل قبل أن أحدد بالضبط معنى كلماتها.

قلت ساخراً: وكانت هذه هى نهاية فكرتك المثيرة!

قال: بل قلت: أحاول بطريقة أخرى لعلّى أضع يدى على هذا الحاجز فأتمكن من مجاوزته.

قلت: ها!

قال: فأتيت بباقة من عيون الشعر ومحكم الأمثال وبليغ الخطب وبالتوراة والأناجيل، وتخيرت منها الجميل والبديع والبليغ، ووضعتها جنباً إلى جنب فوجدتها رائعة مضيئة.

قلت: أرأيت فيها شيئاً كمثل آيات القرآن؟

قال : بل ما إن وضعت القرآن إلى جوارها حتى غاض بريقها وذهبت روعتها وازداد شأن آيات القرآن فى نفسى غموضاً . فقد كنت أحس حاجزاً بينى وبين الآيات وأنا أنظر إليها وحدها، وكنت أرجو أن أضع يدى عليه إذا وضعتها إلى جوار غيرها . فإذا به يستحيل بحراً شاسعاً لا أول له ولا آخر ولا أعرف فيه لجة من ساحل .

قلت : فجربت طريقة ثالثة .

قال : بل أيقنت بعجزى .

قلت : أتريد أن تعرف سر هذا الحاجز فى الآيات ؟

قال متلهفاً : وهل تعرفه؟

قلت : ظاهر أمامك !!

قال : ظاهر أمامى ؟!

قلت : وخفى !

قال : وخفى أيضاً ! هل هو لغز؟

قلت : بل هو ظاهر وباطن .

قال : فابدأ بالظاهر أولاً .

قلت : الظاهر أولاً :

لو وضعت كل ما ذكرت من شعر وخطب وتوراة وأناجيل إلى جوار القرآن دون أن تفكر ولا تتأمل ولا تحار لرأيت فارقاً لا يخطئه عقل ولا عين .

قال : أهو واضح إلى هذه الدرجة؟

قلت : نعم . ففى كل هذه الذى يتكلم بشر .

قال : أه ! بشر

قلت : نعم بشر ينشىء بيتاً أو قصيدة فتراه يعبر لك عن نفسه أو مشاعره (ذهبت، رأيت) أو يصف لك مشهداً أو يأمرك أو ينهاك (قام، انطلق، افعل) .

قال: صحيح. وكذلك الخطب.

قلت: وكذلك التوراة والأناجيل. فكاتب بشر هو الذى يحكى لك فى التوراة: فى البدء خلق الله.. وعاد إبراهيم.. وخرج موسى وهارون.. وقال الرب لموسى.. ومات موسى؟

وبشر هو الذى يحكى ويروى فى الأناجيل: ولما ولد يسوع.. وفى تلك الأيام جاء يوحنا.. ولما قربوا من أورشليم.. وقال يسوع.. ولما صلبوا يسوع.

قال وهو يطرق على جبهته: كيف غاب عنى هذا؟

نعم بشر هو الذى يتكلم ويقول ويصف ويأمر وينهى.

قلت: ولأنه بشر وأنت بشر فلا حاجز بينك وبينه، كلامه ككلامك وإن خالفته فى معانيه، وأسلوبه كأسلوبك وإن رفضت ما يرويه، وصياغته للجمل والعبارات كصياغات البشر وإن لم يكونوا من معتقديه.

وأما القرآن....

قال: وأما القرآن فهو ليس من كلام البشر.

قلت: نعم ليس من كلام البشر. فالذى يخاطبك فى القرآن ويخاطب الناس جميعاً هو الله عز وجل مباشرة دون واسطة ولا راوٍ يروى عنه عز جل ولا واصف يصف لك ماذا قال الله عز وجل وماذا حدث وماذا سيحدث وماذا يريد منك. هو سبحانه وتعالى الذى يتكلم وهو الذى يصف وهو الذى يحكم وهو الذى يأمر وينهى. فالخطاب فى القرآن صادر عن الذات الإلهية مباشرة.

فإذا خاطب القرآن: ﴿ **يأيها الناس** ﴾... ﴿ **يأيها الذين أمنوا** ﴾... ﴿ **ياعبادى** ﴾... ﴿ **يأيها النبى** ﴾، فالله هو الذى يخاطب وينادى.

وإذا وصف وإذا قص: ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾... ﴿ **نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون** ﴾، فالله هو الذى يصف ويقص.

وإذا حكم: ﴿ **ذلكم حكم الله** ﴾، فالله هو الذى يحكم.

وإذا أمر أو نهى: ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾.. ﴿ **وءاتوا الذكاة** ﴾.. ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب** ﴾، فالله هو الذى يأمر وينهى مباشرة.

لا يقول لك النبى عليه الصلاة والسلام: قال الله كذا، ولا أخبرنى الله بكذا، ولا أمرنى بهذا، أو نهانى عن ذلك. بل ينقل نص كلام الله كما هو بلفظه وحروفه دون تعديل ولا مقدمات ولا اختصار ولا استطراد ولا صياغة منه عليه الصلاة والسلام.

وينبهك الله عز وجل فى القرآن أن النبى عليه الصلاة والسلام لا يملك التغيير فى القرآن ولا يستطيعه: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

قال: فذلك هو سر مفارقة آيات القرآن لغيره من الكلام شعراً ونثراً، وسر هذا الحاجز المانع الذى يحسه المرء أمام هذه الآيات فتبدو سهلة مستحيلة، قريبة وبعيدة المنال فى آن واحد.

قلت: فلأن الذى يحدثك فى غير القرآن بشر فتعبيراته مألوفة لأن معانيها تخرج من نفس كنفسك، وصياغته للكلمات والعبارات مانوسة، والقوالب التى يضع فيها المعانى تعرفها ولا تنكرها لأن الذى يصوغها ويختار لها القوالب عقل كعقول البشر.

قال: ولذلك يجد البليغ فى نفسه القدرة على تقليدها والسير على نهجها ومحاكاتها. فهذه صيغة البشر وتراكيب البشر تختلف ما تختلف وتتباين ما تتباين ويجمعها الإطار الذى يجمع البشر.

قلت: تماماً كما تتباين وتختلف أشكال البشر وألوانهم، ولكنك مع ذلك لا تخطىء أنت ولا غيرك نسبة بشر إلى البشر.

قال: الآن فهمت سر غرابة آيات القرآن وعباراته.

قلت: لأن الذى قالها هو رب البشر.

فهى غريبة فى صياغتها وتراكيبها وترتيبها، غير مألوفة فى عقلك ولا مأنوسة فى نفسك، ولا تسرى عليها القواعد التى يتكلم بها البشر ويكتبون، ولا تشبه فى نظمها وصياغتها وتشكيلها الذى يصوغون به ويشكلون.

قال: هذا يفسر كل شيء. فهى يسيرة قريبة بأمر الله أودعه فيها، وهى عسيرة بعيدة بعجز وقصور البشر.

قلت: ولذلك لم يستطع أحد قبلك، ولا يستطيع أحد بعدك أن يقلد القرآن ولو فى آية واحدة أو جملة واحدة لأن البشر لا يرتفع مهما امتد الزمان ومر إلى مقام الألوهية، ولا يخرج ما يقوله مهما حاول عن أساليب وصياغات البشر.

ومن يحاول فلن يخرج عن أمر من اثنين: إما الإحساس بالعجز والقصور يرده إلى حقيقته ويعرفه مقامه ومقدار عقله ونفسه، وذلك هو السعيد. وإما أن يجرب فيأتى بالسفاهة ويصبح ما جاء به وصمة يوصم بها وعَلَماً على سفاهته وحمقه أبد الدهر.

قال هامساً: هذا هو السر والحاجز. التنسيق الإلهى للكلمات والصياغة الربانية للتراكيب والعبارات، والكلام صادر عن الله عز وجل مباشرة لا على لسان راو يروى ولا حاك يحكى.

ثم انتفض فجأة وهو يضرب جبهته بكفه وقال: كدت أنسى!! التراكيب والصياغات والتنسيق الإلهى والخطاب الربانى.. هذا هو الظاهر فى الحاجز والمانع فأين جانبه الخفى؟

قلت: الروح.

قال: الروح؟!

قلت: نعم الروح فى عبارات القرآن وآياته تجعله حياً تعرف فيه روح الله عز وجل.

قال: وهل كلام البشر ميت؟

قلت: بل هو كصنعة البشر. قد ترى فيه الحركة، وقد تعرف فيه الإبداع والجودة لكنك لا تحتاج إلى من يعرفك خلوه من الروح وإن تحرك وتكلم.

قال: فأنا أريد أن أضع يدى على هذه الروح فى آيات القرآن.

قلت: إن استطعت أن تضع يدك على روحك فى جسدك تمنحك الحياة استطعت أن تضعها على روح القرآن فيها حياة الكلام. وهذا ما لا سبيل لك ولا لأحد إليه.

فهذه هى التى قال فيها صاحبها والعليم بها: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥].

* * *

قال: إن ما قلته هو الحقيقة الواقعة.

قلت: اجلس أولاً والتقط أنفاسك وقل لى: ما هى هذه الحقيقة الواقعة؟

جلس ثم قال: غرابة التراكيب والعبارات القرآنية وعجائب آياته.

قلت: هذه تراكيب وصياغات إلهية، وعبارات وآيات ربانية. ولأنك بشر فلابد أن تكون غريبة عليك. أو كنت فى شك مما ذكرته لك؟

قال: لا. وإنما عدت إلى العبارات والآيات أتأملها فوجدتها غريبة، بل شديدة الغرابة وليست سهلة كما تبدو لأول وهلة. والأغرب أنه كلما تأملتها ازدادت غرابتها.

قلت: هذا إعجاز من الإعجاز. تعطيك الآيات قدر ما تملك من العقل، فلا تعسر ولا تتبذل أياً كان مقدار عقلك.

قال: إنى أتأمل الآية فأجد فيها أشياء محذوفة لا أفطن لحذفها إلا بعد لأى، وهى مع هذا الحذف مبينة متناسقة ولا تحس أن فيها محذوفاً.

وجربت أن أستغنى عما استغنى عنه القرآن من أمثال هذه المحذوفات وأنا أكتب فلم يخرج إلا كلام مهلهل، ولم تلتئم على لسانى ولا استقامت على قلمى

جملة واحدة. وفى كل مرة أجدنى مضطراً إلى استخذام ما حذفه القرآن ليكون الكلام مفهوماً.

قلت: عدت إلى المستحيل. أما قلت لك لن تستطيع تقليد القرآن. إلا إذا كنت تريد دخول التاريخ من باب السفاهة.

قال: لا تقطع علىَّ الطريق هكذا. فأنا مذهول وأريد أن أفضفض بما فى نفسى.

قلت مبتسماً: فضفض إذاً كما تشاء.

قال: وقد أجد الآية فيها أشياء مقدمة وأخرى مؤخرة لا أعرف كيف قدمت ولا كيف أخرت. فالآية تبدو بلا تقديم فيها ولا تأخير، وقد حاولت أن أعيد ترتيب الآية لأقدم المؤخر وأؤخر المقدم فلم أفلح.

أما الأعجب والذى كاد يذهب عقلى أن أنظر إلى الآية فأجدها أمامى مفهومة يسيرة موجزة قصيرة، ثم أعود إليها فأجدها تبدو فى عقلى ضخمة كبيرة، ثم أعود إليها فتختلط على فلا أعرف أهى موجزة قصيرة أم ضخمة كبيرة حتى كدت أتهم عقلى وأحس بالخبال.

قلت: ها! هل انتهيت من الفضفضة؟

قال متنهداً: انتهيت.

قلت: أتعرف ما الذى أوقعك فى كل هذه الحيرة والذهول؟

قال متلهفاً: ماذا ؟!

قلت: أنك مازلت تفكر فى القرآن الإلهى بمقاييس الكلام البشرى، إما وإما.

قال: إما وإما؟!

قلت: هذه مقاييس البشر وأساليبهم، إما أن يكون الكلام موجزاً وإما أن يكون مطنباً، إما أن يكون كاملاً أو أن يكون محذوفاً منه، إما أن تفهمه

بالبديهة أو أن تفهمه بالتأمل، إما أن يخاطب عقلك فيقنعك أو أن يخاطب نفسك ووجدانك فيمتعك، إما أن تربطه بالحروف والكلمات وجمل الحشو أو أن يصير مهلهلاً لا معنى له.

قال: إما وإما. فهمت.. لكن هل يكون الكلام إلا إما وإما؟

قلت: هذه هى القوانين التى تحكم كلام البشر.

وكما أن الله عز وجل وضع القوانين والنواميس للكون والبشر وهى لا تحد قدرته ولا تقيد طلاقتها يخرقها عز وجل متى شاء أنى شاء على أى وجه شاء، فكذلك هو عز وجل لا تحد كلامه قوانين البشر، هم يتقيدون - رغماً عنهم - بها وهو يعلو عليها،، كلامهم يصدر عنها وكلامه عز وجل يخرقها.

رفع رأسه كأنه يفيق من غفوة ثم قال كأنه يحدث نفسه: حقاً! لو كان كلام الله يتبع قوانين البشر ويخضع لها فأين كانت ستكون المعجزة؟ يالغبائى!

قلت: بل إنك ذكى لامع!! فأنت تفطن إلى ما يمر على كثيرين لا يفطنون إليه ولا يشعرون به.

قال: فأريد أن أفهم السر فى هذه الآيات العجيبة.

قلت: سنحاول خطوة خطوة.

قال: فأين الخطوة الأولى؟.

قلت: إن حروف القرآن وكلماته دقيقة فى نفسها وبين أخواتها.

قال: فذلك قلناه من قبل.

قلت: فآيات القرآن هى السبيكة التى تمتزج فيها هذه الحروف والكلمات لتعطيك تناسقاً وتجانساً لا تفاوت فيه، وإحكاماً وانتظاماً لا خلل فيه.

قال: فهل يصل التناسق والانسجام والإحكام والانتظام إلى أن تقصر عنه عقول كل البشر؟

قلت: فاحكم أنت بنفسك. انظر إلى قوله تعالى فى سورة العنكبوت:

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قال: هذه مصارع المستكبرين. تعرف! هذه هى الآية التى كادت تُذهب عقلى حين نظرت إليها لأول مرة فرأيتها موجزة، ثم عدت إليها فرأيتها ضخمة كبيرة، ثم اختلطت على فلم أعد أدرى أموجزة أم كبيرة.

قلت: بل هما معاً، فهى موجزة بألفاظها كبيرة هائلة بما فيها من معان وأحداث، ففى أربع جمل خاطفة جمع لك مصائر أربعة من الأقوام الظالمة، وفى كل مصير كارثة كونية.

لكن انتظر ولا تستدرجنى فنحن الآن فى التناسق والانسجام.

قال: فليكن!

قلت: لو تأملت الآية لرأيتها جاءت بترتيب مصارع الظالمين بترتيب ورود الأقوام الذين نزل فيهم العذاب فى الآيات السابقة لها. فأقرأ من سورة العنكبوت.

قال: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم... ﴾ [العنكبوت: ٣٨ - ٤٠].

قلت: فها أنت ترى أن الآيات رتبت الأقوام ترتيباً تاريخياً حسب مجيئهم من الأقدم إلى الأحدث، ثم جاءت بمصائرهم وعذاب الله فيهم مرتبة على نفس ترتيب ذكرهم، لكل قوم عذابهم. فلعاد الحاصب، ولثمود الصيحة، ولقارون الخسف، ولفرعون وهامان الغرق(*).

(*) ذهبت كثير من التفاسير إلى أن المصائر المذكورة عامة وليست مخصصة بالأقوام المذكورة فى الآيات السابقة وعلى ذلك قالت (الكشاف، القرطبى، ابن كثير): إن الحصباء لقوم=

قال: إن ما تقوله صحيح، فالعذاب مرتب ترتيب ذكر من نزل بهم، وإنه لتناسق محكم وتجانس بديع.

ثم خفت صوته ونظر إلى بطرف عينه وقال: ولكن عقول البشر لا تقصر عن هذا، فهو شيء مقدور عليه. إذا كتبت عن أقوام متتابعة رتبت مصائرهم ترتيب تتابعهم فيحدث التناسق والانسجام منى ولو لم أقصده.

يكفى أن أتتبع التاريخ فى كل.

قلت: فهذه ليست كتابة ولكنه كلام يتلى دون سابق إعداد أو بحث أو تجهيز.

قال: ولو!

قلت: فأما الذى يُعجز البشر ولا تصل إليه أفهامهم هو أن يكون داخل التناسق تناسق، وفى كنف الانسجام انسجام، وفى جوف الترتيب ترتيب لا يتضارب هذا مع ذاك. وقد يذهل عقلك بالظاهر منه عن الخفى فيه.

قال: تناسق وانسجام وترتيب آخر؟!

قلت: نعم، فلو تأملت هذه المصارع المرتبة حسب ترتيب ذكر أقوامها لرأيت فيها ترتيباً وتناسقاً بديعاً آخر يبدأ من السماء ليحط على الأرض ثم يغور بها لينتهى فى أعماق البحر.

قال وهو يعبث بشعره: أرسلنا.. حاصبا.. الصيحة.. خسفنا.. أغرقنا..

= لوط والصيحة لعاد وثمود معاً والخسف لقارون والغرق لقوم نوح وقوم فرعون معه. ولكنى تابعت الأستاذ سيد قطب فى تخصيص هذه المصائر بالأقوام المذكورة إجمالاً فى الآيتين السابقتين ويدل عليه:

أولاً: الترتيب نفسه الوارد على ترتيب ذكر القرآن لهذه الأقوام.

ثانياً: أن مصير قوم لوط مذكور فى الآية الخاصة بهم ﴿**إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾ وكذلك مصير قوم شعيب ﴿**فأخذتهم الرجفة**﴾ فلا حاجة لذكر مصائرهم مرة أخرى فى نفس السياق. لذا فالمصائر والعذاب المذكور هو للأقوام المتتابعة المجملة «عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان».

قلت: ألم أقل لك إنك ذكى المعى.

قال: ذكى المعى؟! أنا لم أفهم شيئاً بعد.

قلت: إن أول مرتبة فى العذاب فى الآية تبدأ من السماء: ﴿ **أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا** ﴾، ثم الثانية على الأرض: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ** ﴾، ثم المرتبة الثالثة العذاب يغور بالأرض: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ** ﴾، ليستقر فى الرابعة فى أعماق البحر: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا** ﴾.

قال مستغرباً: فهذا العذاب المختلف عذاب واحد؟!

قلت: بل يرسمه لك القرآن وكأنه عذاب واحد فى مراحل متتابعة من السماء إلى الأرض، ثم فيها إلى أعماق الماء ليعرفك به وحدة مصدره، ووحدة اتجاهه، وقانونه الواحد فى الظالمين لا يتخلف.

قال: الترتيب والتناسق حسب الزمان، وترتيب وتناسق خفى حسب المكان.

قلت: وهذا فى بطن ذاك.

قال: لا أعرف كيف أستوعب اجتماع الاثنين معاً. قل لى: هل هذا معقول؟

قلت: ماذا؟ ما هو هذا المعقول أو اللامعقول؟

قال: إن هذه أحداث حدثت والقرآن يصفها، وترتيبها الزمنى طبيعى فهذا هو ترتيب حدوثها، ولكن الترتيب الآخر واتفاق الاثنين معاً!! لا يمكن أن يُفهم إلا أن يكون القرآن يصف الأحداث ويرتبها وينسقها كيف يشاء، ثم تأتى الأحداث فى الزمان والمكان مرتبة كما أراد وصفها هو أولاً.

قلت: إنه لمعنى بديع.

قال: لا حل لهذا اللغز إلا هكذا، فلو أن ثمود سبقت عاداً فى الزمان، أو سبق فرعون ثمود لجاء ترتيب العذاب بغير ما جاء. ولو جاء بغير ما جاء لكان

متجانساً مع الترتيب الزمانى ومخالفا للترتيب المكانى. فلكى يكون التجانس من الجهتين لابد أن تكون الأحداث والتواريخ كما هى.

ثم مال إلى الوراء وتنهد بعمق ثم قال: إنى أحس برعدة هائلة، يالهول المعنى المخبوء فى هذا الترتيب والتناسق! إن كلمات القرآن وآياته هى قدر الزمان وأحداثه.

قلت: والمهم أن قد رأيت بنفسك التناسق والتجانس من كل وجه وبما لا يحيط به عقل، لا تشذ عن ذلك آية، فما من آية إلا وكلماتها مترابطة محكمة تتساند لتعطيك المعنى المطلوب. فلو حاولت أن تحذف كلمة، أو تبدل بها غيرها، أو تقدم أو تؤخر لو جدت نسيج الآية يتفكك فى يدك ويستحيل خيوطاً واهية لا يمكنك أن تجمعها مرة أخرى إلا كما هى.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَىٰ بعَبْده لَيْلاً مّنَ الْمَسْجد الْحَرَام إلَى الْمَسْجد الأَقْصَا الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لنُرِيَهُ منْ آيَاتنَا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ** ﴾ [الإسراء: ١].

قال: إنها آية يسيرة سلسة، ولطالما مررت عليها ولم يستوقفنى فيها شىء غريب اللهم إلا معجزة الإسراء نفسها.

قلت: وهذا هو عين الإعجاز، فلأن الآية سبيكة واحدة تمر عليها عينك ولا تصطدم بشىء يستوقفها أو يعوق انسيابها. وإنما تناسق تام وانسجام كامل للألفاظ مع معناها.

قال: كيف؟

قلت: الآية جاءت - كما قلت - لبيان معجزة الإسراء وتأكيد حدوثها بقدرة الله عز وجل لا بقدرة النبى عليه الصلاة والسلام الذى تحكمه قوانين البشر.

قال: فهذه أعرفها.

قلت: أما الذى يذهب إلى النفس ويتسلل خلالها فى يسر دون أن تفطن إليه فهو أن كل كلمة فى الآية موجودة أو محذوفة تعطى هذا المعنى، فكأنها قطرات من السماء تتجمع لتعطيك رقراقاً عذباً صافياً من الماء.

قال: دائماً تشوقنى وتقف!

قلت: بدأت الآية بـ﴿ سُبْحَانَ ﴾، فوضعت لك بذلك عَلَماً على الطريق الذى سوف تسير فيه، فهى عنوان لكل ما سيأتى بعدها ليس لك إلا أن تفهمه فى ضوئها.

قال: فهذه تنزيه لله عز وجل وإعلاء له وتمجيد لقدرة الله. وهذا العَلم يعنى أننا نسير فى طريق يقاس كل ما سنلاقيه فيه بقدرة الله لا بضعف الخلق.

قلت: فإذا تركت العلم الذى دلك على الطريق الذى ستسير فيه جاءك بعلامة أولى على الطريق: ﴿ الَّذِي ﴾، فلم يأتك بلفظ الجلالة «الله» صريحاً؛ لينبهك بهذه الإشارة إلى أن ما سيخبرك به ليس معجزة تراها شهوداً ومعاينة، وإنما هو غيب تؤمن به إخباراً وتصديقاً.

قال: فأخفى لفظ الجلالة علامة على أن ما يخبر به غيب خفى لا مشهود جلى، إذاً ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي ﴾ هذا علم وهذه علامة.. ثم.

قلت: ثم انطلقت المسيرة فبيَّن لك من أين تأتى طاقة السير.

قال: ﴿ أَسْرَى ﴾، فليس محمد عليه الصلاة والسلام هو الذى سرى.

قلت: نعم. بل بقوته وطلاقة قدرته سبحانه الذى نصب لك العلم ووضع العلامة لتستحضرها وتصحبها معك فى مسيرتك داخل الآية.

قال: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾؟

قلت: الباء أولاً.

قال: وهل الباء وحدها لها معنى؟

قلت: وأى معنى؟! العلم والعلامة تريك يد القدرة والجلال، والباء لعبده جناح الرفق والحنان.

قال: جناح الرفق والحنان؟!

قلت: الباء تعطى معنى الإلصاق والمصاحبة والرعاية والعناية عن قرب. فجاءك بها لتعلم أنه عز وجل كان رفيقاً طوال المسيرة - برحمته ورعايته - لعبده، وعبده آمن فى صحبة ربه.

فلم يقل أسرى عبده حتى لا يتوهم أحد من علم القدرة والجلال أنه عز وجل أسرى عبده عقاباً، أو نفياً، أو تركه يعالج سرعة الانتقال ويعانى متاعب المسيرة ومشاق الطريق، أو تركه دون صحبة ورفقة تؤنسه.

قال: ونعم الصحبة والرفقة! فلماذا لم يقل النبى أو الرسول ليشرفه عليه الصلاة والسلام؟

قلت: ذلك تفكير بعقل البشر القاصر، فليس هذا مقام وحى ونبوة، ولا مقام تبليغ ورسالة. وإنما هو مقام خصوصية وصلة فريدة بين الرب وعبده. فوصفه بالوصف الذى استحق به هذه المنزلة وهذه الرحلة المصحوب فيها برعاية الله وعنايته.

قال: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾.

قلت: نعم، فهو قد نال هذه الرحلة وهذه الرفقة بهذه المرتبة العليا، العبودية الخالصة لله عز وجل وأداؤه لحقها الكامل فهى صفة وسبب ثم هى دليل.

قال: دليل على ماذا؟

قلت: دليل على الإسراء، فهو عبد الله، لم يسر هو ولم يذهب ولم يجىء، بل أسرى به الذى هو عبد له.

قال: وهو الذى العلم والعلامة قائمين منصوبين يذكران دائماً بقدرته.

قلت: فوسمه ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ التى تريك رقة حالة واقتقاره إلى ربه ليعرفك أنه لم يكن ليسرى وهذه صفته فى جانب ربه وإنما أسراه هو بها.

قال: أليس أسرى وسرى معناها السير ليلاً؟

قلت : بلى .

قال : إذا فـ﴿ لَيْلاً ﴾ هذه زائدة . إذ ما فائدتها ومعناها موجود؟

قلت : ومع ذلك فوجودها فى الموضع الذى يظن البشر كما ظننت ألا فائدة لها فيه هو سر الإعجاز، والفارق بين قصور عقولهم وإحاطة الإعجاز الإلهى . أولاً . . .

قال : أولاً؟! وهل هذه فيها أعداد أخرى؟!

قلت : فتلك هى الدرر الإلهية لا ينفذ معناها .

أولاً : لو لم يقل ﴿ لَيْلاً ﴾ لتوهمت أن الإسراء استغرق الليل كله، لأن الإسراء - كما قلت - السير ليلاً، أو أنه بدأ ليلاً ولم ينته فيه . فجاءك بها ليعرفك أن المسيرة - بقدرة الله - لم تستغرق إلا يسيراً من الليل بدأت فيه وانتهت فيه . فجعلها بذلك راية تذكرك بأخيها العلم المرفوع فى بداية الآية .

قال : وثانياً؟

قلت : ثانياً : وضع لك ﴿ لَيْلاً ﴾ بعد ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ ليضع لك بها إشارة إلى كيف بلغ عبده هذه المرتبة .

قال : كيف؟

قلت : لو جعلت ﴿ لَيْلاً ﴾ هذه متعلقة بـ﴿ عَبْدِهِ ﴾ لا بالإسراء، فهو عز وجل أسرى بـ﴿ عَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ لا بعبده فقط .

قال : إنها لرائعة! فهو أسرى بالذى يقوم له يتعبده ليلاً . فهو العابد وسط الغافلين القائم وسط النائمين الذى لا تغفل عينه ولا قلبه عن ذكر ربه .

قلت : فهو قد نال هذا المحل الأرفع وبلغ هذه المنزلة العليا بهذه العبودية الخالصة ليلاً، يطرح عنه فيه شواغل الدعوة والرسالة ويخلص لعبادة ربه يتملقه ويمجده فى علاه . فهو عبد الله الخالص له فى الليل . فلو لم تجئ ﴿ لَيْلاً ﴾ لما عرف شرف عبادة الليل وعبودية الليل الخالصة لارياء فيها ولا انشغال فيها بغير مناجاة

رب الكون. فهو لا يحدد لك زمن الإسراء، ولكن وقت العبودية الخالصة لله عز وجل بها بلغ عليه السلام المنتهى. وثالثاً..

قال: أنا مكتف بهذه اللمحة البديعة. إن ﴿ لَيْلاً ﴾ فى مكانها الخلابة.

قلت: بل ثالثاً: ذكر لك ﴿ لَيْلاً ﴾ وشدد عليها فلم يسقطها ليحيطك بجو السكون فى الليل والهدوء والسكينة فيه، فيرسم لك بها الجو النفسى الذى أحاط بهذه الرحلة المباركة.

قال: جو الليل الهادىء الساكن المترقرق بالصفاء وأفراح الروح.

قلت: فإذا تمت الأعلام والعلامات، وعلمت من السارى ومن الذى أسرى به ولم أسرى به، وتهيئت نفسك لمعرفة الرحلة التى تحفها هذه الظلال جاءك بها خاطفة: ﴿ من.. إلى ﴾، فلا زمن ولا طريق ولا راحلة.

قال: وكيف الزمن والطريق والراحلة و﴿ سُبْحَانَ ﴾ فى أول الآية قائمة؟!

قلت: واختار لك البداية والنهاية من المسجد إلى المسجد، لا مكة ولا القدس، لأن المسجد هو المكان الوحيد الذى يتواءم مع جو الرحلة المفعم بالعبودية لله والسكون والسكينة والهدوء والطمأنينة. وهو المكان الذى يقوم له فيه عبده ليلاً. فهو المكان الذى استحق بوجوده فيه هذا الشرف والتكريم.

قال: وهو المكان الذى بارك عز وجل حوله.

قلت: فإذا كانت البركة غمرته وفاضت حوله فما أدراك بالبركة فيه هو نفسه كيف تكون؟

ثم قال: ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾، فمازالت قدرة الألوهية هى الفاعلة، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم ير، ولكن أراه ربه من آياته الكبرى.

ثم ختم لك الآية بـ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ السميع لعبده ليلاً، البصير يريه بقدرته ما شاء من آياته.

قال: إنها رحلة ممتعة.

قلت: فتأمل الآية مرة أخرى، وانظر إليها مجتمعة فى كلماتها، وتأمل ما

جاء به وما حذف، وما اختار وما ترك لتوقن أن ذلك لا يكون فى طاقة البشر ولا فى سعة عقولهم.

جاءك بـ﴿ سُبْحَانَ ﴾ فى البداية، ولم يأت بلفظ الجلالة وأناب عنه ﴿ الَّذِي ﴾ ، وقال ﴿ أَسْرَى ﴾ ولم يقل يسرى، وجاءك بالباء ويمكن فى مقاييس البشر حذفها، واختار ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ على الرسول والنبى، ثم ﴿ لَيْلاً ﴾ بعجائبها، وطوى الرحلة ﴿ من ..... إلى ﴾، والبركة حول لا فى، واختار ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ وترك ليرى. ثم ختم كل ذلك وجمعه فى ﴿ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

قال: إنها كلها تعطى معنى واحداً وجواً واحداً متناسقاً متجانساً مترابطاً يتضح من كل كلمة ويغلف كل كلمة: القدرة الإلهية، والعبودية الخالصة، والسكينة والبركة تحف هذه الصلة بين العبد وربه.

قلت: فسبحانه.. سبحانه.

* * *

قال: إن آية الإسراء لكالثريا.

قلت: أمازلت تتأملها؟

قال: إنى لأعجب كيف كانت تمر أمام عينى بيسر دون أن تستوقفنى كل هذه الأنوار، إن كل كلمة فى الآية تفيض ضياءً كاشفاً ونوراً متلألاً يجعل الآية فلكاً مرصعاً بالنجوم والكواكب الدرية.

قلت: هى النجوم جاءك بها القرآن لتهتدى بنورها فى ظلمات الشك والريب.

قال: فأنا الآن أريد أن أفهم هذه الظاهرة العجيبة فى الآيات التى تجعلنى أراها موجزة طويلة ضخمة قصيرة.

قلت: هذا إعجاز الآيات تضع لك أضخم المعانى فى أيسر الألفاظ وأقلها وأجزلها. فتجد المعانى وافرة متعددة والألفاظ قليلة معدودة. ولن تجد ذلك فى كلام قط سوى القرآن. فمن أراد أن يعطى معنى فيوفيه حقه وجد المعنى يجر الألفاظ من لسانه وقلمه. فيأتى بجملة ليسد بها فرجة فى المعنى يجدها تحتاج

إلى ثانية ليمنع معنى زائداً لا يريده، فلا يكون أمامه بد من ثالثة ليستدرك بها، وأخرى يشد بها أواصر الجمل.

وهلم جرا.

قال: كل ذلك في معنى واحد؟!

قلت: أما إذا أراد معانٍ متعددة وشئوناً مختلفة فلا تنتظر منه إلا الصفحات الطوال يخرج فيها من معنى إلى معنى، ويربط غرضاً بغرض.

قال: فلا سبيل لتفادى ذلك أبداً.

قلت: فلو أوجز لرأيته لا مناص له من أن يجور على المعنى، فلن يعطيه بإيجازه حقه ولن يوفيه مستحقه.

فيخرج الكلام غامضاً ناقصاً لا يستقيم لك منه معنى.

قال: والقرآن؟!

قلت: القرآن يأتيك بالمعاني لا تحصى في الكلمات لا تعد من قلتها، ويوفي بها كاملة غير منقوصة، بل غنية متفجرة من كل وجه.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [سورة الإخلاص] هذا سطر واحد جمع لك فيه من المعاني ما لا أول له ولا آخر، وما قد تتوه فيه ويهرب منك بعضه لغناه وكثرته.

قال: أليست تعدل ثلث القرآن؟

قلت: بلى. فانظر ما فيها من غزارة المعاني على ندرة الألفاظ، فقد أثبت فيها وجود الإله الحق وبين صفاته وما يجب له من الكمال، ونفى عنه كل ما لا يليق بمقامه وجلاله.

قال: واحدة واحدة حتى أفهم.

قلت: ﴿ **قُلْ** ﴾، فلا سبيل لمعرفة الإله الحق وما يجب وينبغي له إلا به ومنه، والرسول المصطفى لا يملك مقالاً في الألوهية من عند نفسه.

قال: ﴿ **هُوَ** ﴾.

قلت : ﴿ هُوَ ﴾، فدلك على أنه غيب، ولا يكون الإله الحق إلا غيباً تؤمن به ولا تراه ولا يكون الإيمان إلا بغيب لا تراه .

قال : ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

قلت : فهو الله . ولأنه الله فهو جامع لكل صفات الكمال والجمال والجلال والعزة .

وهو ﴿ أَحَدٌ ﴾ فلم يقل « واحد »، فنفى بذلك الشرك عنه فلا شريك له، ونفى عنه الانقسام فى ذاته فهو ﴿ أَحَدٌ ﴾ لا أجزاء متعددة يفتقر بعضها إلى بعض .

قال : إذن ففيها نفي الشرك والتعدد، ونفى الانقسام والتجزىء .

قلت : ولأنه ﴿ أَحَدٌ ﴾ متفرد فهو منزه عن كل خلال النقص، ولأنه الله الأحد لا شريك له فهو المستحق الأوحد للعبادة .

قال : التوحيد، توحيد الألوهية .

قلت : و﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ المصمود المقصود فى الحوائج يفتقر إليه جميع خلقه .

قال : فهو الغنى .

قلت : ولأنه الغنى وخلقه فقير إليه فهو الذى ينعم على خلقه، وهو الذى يمنحهم وجودهم ورزقهم، ونعمه عليهم سابغة ظاهرة وباطنة . فلا خالق غيره ولا منعهم سواه .

قال : ففيها توحيد الربوبية والخلق والإنعام .

قلت : وفيها دليل وجوده عز وجل، فهو المصمود الذى يحتاج خلقه فى وجودهم لوجوده ويتوقف عليه، وهو غنى عن وجود غيره .

قال : فهذا دليل الوجوب فى الألوهية .

قلت : ولأنه ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وناموس كونه ونظام خلقه يتوقف استمراره على حفظه له وعنايته به، فهذا دليل النظام والعناية . ولأنه المصمود الأوحد المقصود وحده فى الحوائج، ولأن الافتقار لا يكون إلا إلى الكامل التام، فهو الكامل التام

القدرة، المحيط العلم، المتصف بالجلال والكمال يقصده خلقه، وبالجمال والحنان يقضيها لهم.

قال: ففيها كل صفاته الحسنى جلالاً وجمالاً.

قلت: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ فهو أبدى لا آخر له.

قال: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

قلت: فهو أزلى لا أول له. ولأنه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فهو حى لا يموت، لأن الولادة قرينة الموت والموت مخبوء فى رحم الولادة، وما تحدث الولادة إلا فيمن يموت لإبقاء الأب فى ابنه.

قال: ففيها - إذاً - الرد على من زعم البنوة لله.

قلت: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾، فليس له شبيه ولا نظير ولا ند ولا والد ولا ولد، وهو المتفرد بكل صفات الكمال، المنزه عن خلال النقص فى بنى الإنسان.

قال: كل ذلك فى سطر واحد، إنها لأعجوبة.

قلت: فلو أعدت النظر فى هذا السطر لوجدته وفّى فيه من المعانى والقضايا الكبرى ما لا يحاط به فى مجلدات.

ففيه أثبت وجود الله عز وجل بأقل الألفاظ وأيسر الكلمات، تعرف الفرق بينها وبين قصور عقل البشر وكلامهم لو طالعت المجلدات التى كتبها الفلاسفة والمتكلمون لمحاولة إثبات ما جاء به القرآن فى كلمة أو اثنتين.

قال: لا تذكرنى! طالما أعيتنى هذه الكتب، ولم أفلح قط فى أن أتم منها شيئاً، فأسلوبهم معقد وكلامهم حشو طويل يستغلق على الأفهام ويتوه المرء فيه. وقد أظل يوماً كاملاً فى صفحتين أحاول اقتناص شىء من بين المصطلحات والكلمات واللف والدوران فلا أستطيع.

قلت: وفيها جاءك بتوحيد الله عز وجل كاملاً بشطريه: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. وفيها جمع لك صفات الله الحسنى وما ينبغى له من كمال ونزهه عن كل ما لا يليق بالألوهية الحقة. فلا يمكنك أن تنزع عنه عز وجل صفة

كمال، ولا أن تنسب إليه صفة نقص، فألفاظها جامعة مانعة. وفيها رد على المشركين وكل من يجعلون مع الله آلهة أخرى، من عُبَّاد الأصنام إلى عُبَّاد النجوم والكواكب وما بينهما.

وفيها نقض دعوى البنوة لله من أصولها ودلك عقلاً على استحالتها. وهدم مذهب الثنوية الذين يجعلون إلهاً للشر والظلام فاعلاً بقوة وقدرة إله الخير والنور بقوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾. فلو أردت الإحاطة بما فى هذا السطر لاحتجت إلى مجلدات الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة ولا حتجت عمرك كله ولن يكفيك.

قال: لن يكفينى وأيضاً لن يفى بما أوفت به السورة فى يسر وسهولة وتسكبه فى النفس فى بساطة. وإنى لأعجب أشد العجب! فإنى لأرى الرجل العامى بل الأمى يقرأ السورة أو تقرأ له فيفهم ما فيها دونما عنت ولا إرهاق على ما فيها من مسائل عويصة وقضايا كبرى. فكان السورة لا تمر على عقله بل تُصَبَّب فى نفسه صباً. فإذا جاء لها متكلم أو متفلسف غاص فيها ما غاص وفصل وحلل، وشرح وعلل، وكتب الأسفار الطوال، ثم لا يخرج حقيقة ما أفاض فيه وكتب عن حقيقة ما فهمه العامى ولو قيد شعرة.

قلت: فذلك إعجاز آخر من إعجاز آيات القرآن وعجيبة أخرى من عجائبها، تخاطب الناس جميعاً فى وقت واحد: العالم والأمى، البسيط والمتبحر، البادە والمنطقى والبرهانى، العامة والخاصة.

قال: ومع ذلك فهى تعطى كل واحد ما يرضيه ويغنيه، وعن غيرها ما يكفيه.

قلت: وأما فى غير القرآن، فلن تجد كلاماً يكتب أو يتلى إلا ويخاطب فئة محددة. فهو إما لمخاطبة علماء فلن يفهمه العامة، ولو كان لعلماء فى اختصاص فلن يفهمه غيرهم. ولو خاطب العامة استنكف ابتذاله الخاصة. ولا يستطيع بشر أن يصوغ كلاماً يُرضى به كل الناس على اختلاف عقولهم وتنوع نفوسهم وتباين عواطفهم مهما حاول، ليس ذلك إلا فى القرآن. فآية القرآن كالبحر يقف أمام شاطئها جل الناس تسكب فى نفوسهم الراحة والجمال سكباً. فإذا مخر عبابها

ملأح ازداد فى عينه جمالها، واستولت على نفسه فساحتها ورحابتها وامتدادها فى الأفق. فإذا غاص فى أعماقها غواص رأى من الروائع والحياة الغنية ما يصبح الغوص به سجية له ويتمنى معه أن يتخذ هذه الأعماق سكناً ومحلاً.

تأمل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فقل لى: لو أن امرأً بسيطاً يذهب إلى عمله أو حقله ويجىء قرأ هذه الآية أيعجزه أن يصل إلى الدليل على وحدانية الله فيها؟

قال: بل هذا الدليل أوضح من الشمس فى رابعة النهار، ولا يعجز إنسان مهما كانت بساطته أن يقف أمامها فيكون لسان حالة مع لسان مقاله: «المركب التى فيها رئيسان تغرق»، فلابد للمركب من رئيس واحد كى تسير، وكذلك لابد للكون من إله واحد حتى ينتظم ولا يختل أو يضطرب.

قلت: وبذلك تنتهى المسألة وتحسم فى بساطة ودون عناء. فلو مخر عباب الآية منطقى من المناطقة لا يقنع عقله إلا بالجدل والمنطق اللفظى والدليل القياسى لو جد فيها ما يشفيه ويكفيه.

قال: ولكن ليس فى الآية إلا مقدمة واحدة، ولو جاءت على قياس المنطق لكان الأولى أن يقول: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، والفساد ممتنع، إذاً تعدد الآلهة محال.

قلت: فلو تأملت الآية لوجدت هذا المنطق بكل أركانه ومعانيه موجوداً فى الآية، ولكن القرآن أتاك به مضمراً. فأنت لن تفهم من الآية مهما حاولت أقل من هذا، وهذا هو عين الإعجاز. حذف مقدمة وأتاك بالمعنى كاملاً والمراد تاماً، وحذف النتيجة وجعلها تنضح من الآية نضحاً. ولو جاءك بالمقدمة والنتيجة التى حذفها لفظاً وسرّب إليك معناها لجعل العقل والنفس يدوران مع - وفى - الكلمات والألفاظ والمعنى تائه فى زحامها بعيداً عن بؤرة العقل ومركز النفس. وهذا هو الفرق بين منطق القرآن ومنطق البشر.

قال: منطق البشر! يالجفافة وإرهاقه للذهن! كأنهم يقدونه من صخر.

قلت: وأما منطق القرآن فيعلو على هذه المماحكات اللفظية الجافة

والأقيسة الشكلية التى تجهد الذهن وترهقه وتنتهى بالنتيجة تراها أمامك، ومع ذلك لا يستريح بها عقل من شكه ولا تقر معها نفس فى حيرة. فإن القرآن ياتيك بأركان المنطق المعنوية كاملة ويسيلها فى قالب من الألفاظ السحرية تكون المقدمة فيها ونتيجتها شيئاً واحداً، لا تكد ولا تكدح ولا تنحت فى الصخر لتفهمه، بل يستقر المعنى المطلوب فى عقلك ونفسك كانه سكب فيها سكباً.

قال: لأول مرة أرى المنطق جميلاً ممتعاً وسهلاً هيناً.

قلت: فإذا تأملت هذا المنطق القرآنى وتيقنت من استيفائه لأركانه، ثم عدت إليه لوجدته هو عين البديهة التى فهمها أخوك العامى. وهذا فارق آخر بين إعجاز المنطق القرآنى وقصور المنطق البشرى الذى لا تفهمه أبداً على البديهة وبفطرة العقل والنفس، وإنما بالاكتساب والتأمل العميق، والتفكر والقياس الدقيق الذى ربما غيبك غوصك فى ألفاظه عن المعنى المراد منه.

قال: سبحان الله! آية واحدة فيها البديهة والمنطق ممتزجان معاً!

قلت: فما قولك لو علمت أن فيها إلى البديهة والمنطق براهين الفلسفة.

قال: براهين الفلسفة؟!!

قلت: ألم أقل لك إن الآية بحر توغل فيه ما توغل، وتغوص ما تغوص ولا تصل أبداً إلى قراره؟

قال: يا لسكوتك هذا الممل! أين هى هذه البراهين؟

قلت: لو وضعت شطر الآية هذا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ إلى جوار أختها: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢]، لو جدت فيهما كل براهين العقل المحض على وحدانية الله عز وجل واستحالة الشرك وتعدد الآلهة. فقل لى: ما هو أقل عدد للتعدد؟

قال: الاثنان.

قلت: فلو كان فى الكون إلهان، أكانا يتفقان أم يختلفان؟

أطرق قليلاً ثم قال: فلنجعلهما يختلفان أولاً.

قلت: فإذا اختلفا، أتنفذ إرادة أحدهما أم إرادتهما معاً؟

قال: فلنجعلها هكذا مرة وهكذا مرة.

قلت: فلو نفذت إرادة كل منهما معاً وهما مختلفان لاضطرب العالم وفسد، أو لانعدم وجوده من البداية كما قال لك القرآن: ﴿لَفَسَدَتَا﴾.

قال: والعالم موجود قائم منتظم لا اختلال فيه.

قلت: ولو اختلفا ونفذت إرادة أحدهما فقط ومراده دون الآخر لما استحق هذا الآخر أن يوصف بالألوهية، ولكان الأول هو الإله الحق لنفاذ إرادته، ولما كان للآخر معه إلا الإذعان وطلب الرضا وابتغاء الوسيلة إليه، كما قال لك القرآن وصور الوضع حينئذ فى هذا التعبير المعجز يعطيك صورة الملك وحاجبه لا إلهين اثنين.

قال: فماذا لو اختلفا ولم تنفذ إرادة هذا ولا ذاك؟

قلت: فإن ذلك لا يكون أبداً إلا لعجز كل منهما عن إنفاذ مراده وإرادته إلا بمعونة الآخر، أو عجز كل منهما عن إنفاذ إرادته لمنعها بإرادة الآخر. وفى الحالين لا يستحق أحد منهما مقام الألوهية التى تستلزم الكمال، وطلاقة القدرة، والإرادة التامة النافذة، والتى جمعها لك القرآن فى لفظ الجلالة «الله» الحاوية لكل صفات الكمال والقدرة. فالله هو الإله بإطلاق.

قال: فلنعد إلى البداية، ماذا لو لم يختلفا واتفقت إرادتهما معاً؟

قلت: لو اتفقا لعجز كل منهما وحده عن إدارة الكون لانتفى عنهما معاً مقام الألوهية وكمالها فى «الله».

قال: فماذا لو اتفقا لا لعجز ولكن لتوافق إرادتهما ومرادهما؟

قلت: إذاً لما كان هناك معنى لوجود اثنين، لأن ما يقوم به الواحد يصبح من السفاهة - فى ميزان العقل - أن يفعله اثنان، ولأن معنى ذلك اتحاد مؤثرين تامى الإرادة فى معلول واحد وهو محال.

ها! هل توجد فروض أخرى غير الاتفاق والاختلاف؟

قال مفكراً: لا.

قلت: إذاً فهذه هى كل فروض التعدد فى الألوهية، وهذه هى كل براهين العقل لنقضها فرضاً فرضاً.

قال: هى كذلك.

قلت: فتأمل شطرى الآيتين مرة أخرى، فلن تجد فى كل هذه البراهين العقلية لنقض فروض التعدد وإثبات الوحدانية شيئاً يزيد على ما جاء فى الآيتين. فقد احتوتا هذه البراهين كلها إثباتاً ونفياً فى كلمتين وجملة واحدة.

قال: فى كلمتين وجملة واحدة؟!

قلت: نعم. ﴿ **اللَّهُ** ﴾، و﴿ **لَفَسَدَتَا** ﴾، و﴿ **إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** ﴾ ففيها كل براهين وأدلة الفلاسفة العقلية على وحدانية الإله.

قال: يا رجل! أين هذه البساطة الآسرة والعذوبة الساحرة من تعقيدات الفلاسفة والكتل الصخرية التى يضعون فيها براهينهم. أنا لا أصدق! ولكن كيف لا أصدق وهى ماثلة أمامى؟!

قلت: هذا هو القرآن يضع البراهين العقلية الجافة اليابسة فى أعذب الألفاظ وأيسر الكلمات وأجمل الصور فيحيلها خضراء يانعة تسرى هى فى الألفاظ، أو تسرى الألفاظ فيها إلى نفسك دون مانع ولا حجاب.

قال: بداهة الفطرة، وأقيسة المنطق، وبراهين الفلاسفة. كلها فى آية واحدة! آية؟! بل جزء من آية.

قلت: وإعجاز الإعجاز وروحه أن صاحب المنطق يجد فيها أقيسته، والفيلسوف البرهانى يجد براهينه العقلية تامة كاملة. فإذا جمعت ما فهمه صاحب المنطق إلى ما غاص ليستخرجه صاحب البراهين العقلية المحض لوجدته لم يخرج فى حقيقته عن حقيقة ما فهمه على البداهة صاحب الفطرة ولما زاد عليه شيئاً.

قال: إن الآية فعلاً لبحر.

ثم توقف فجأة وقال: بحر؟! وأين البحر؟!

* * *

قلت: ماذا تفعل؟

قال: أحاول الغوص.

ابتسمت قائلاً: أراك غرقت فى الكتب.

قال: إن كتب المنطق والفلسفة هذه عسيرة، جد عسيرة.

قلت: وما الذى ألجأك إليها؟

قال: قلت أتأملها وأقلبها لأرى ما فيها من أدلة بنفسى.

قلت: وهل وصلت إلى شيء؟

قال: كشأنى معها دائماً. أجلس الساعات أقرأ الجمل وأتأمل السطور وأكرر وأعيد لأقتنص ما فيها اقتناصاً.

فإذا اقتنصت بعقلى ما اقتنصته بعد جهد جهيد وجدتنى أصاب بالملل وأحس بالفتور.

قلت: فتكف عن الغوص وتجلس فى الشمس!!

قال: لا أجد لنفسى عندها حلاً ولا مخرجاً من هذا الملل والسأم إلا أن آتى ببعض الأشعار وأرددها ترحل معها نفسى، أو بعض القصص الخيالى أتلهى به وأريح عقلى المكدود من عناء التفكير.

قلت ساخراً: فأنت إذاً تبدأ بشحذ عقلك وتنبيهه، وتنتهى بوضعه على الرف وتغييبه!

قال: هذا ليس ذنبى، بل ذنب هؤلاء الذين يتكلمون ما يتكلمون ويكتبون ما يكتبون وكأنهم ليسوا من البشر. لا حياة ولا جمال ولا إمتاع. ليس إلا الكلام الجاف المتخشب.

قلت: فإنهم يكتبونه لأهله وخاصته يعرفونه ويفهمونه، ولا حاجة بهم إلى الجمال والمتعة، وهم لا يرجون من كل الناس فهمه ولا معرفته.

قال: وهل يطمعون أن يعرف أحد أو يفهم هذه الجوامد؟!

تعرف! قلت لنفسى: ربما كان صعباً أو مستحيلاً أن يجتمع إقناع العقل مع راحة النفس ومتعة الوجدان.

ثم رجعت فقلت: كيف ذلك؟ وهل يفهم العقل إلا لتطمئن النفس وتقر عند ما فهمه العقل فرضيه أو رفضه.

قلت : المسألة بسيطة! فإن الكاتب حين يكتب إنما يصدر كلامه منه، فإن كان عقله حاضراً وهو يكتب خاطب بكلامه عقلك فلا تفهمه إلا به. فأنت بحاجة إلى أن تشحذ عقلك وتنبهه وتضعه أمام نفسك ووجدانك وحواسك، تغيبها كلها خلفه فلا حاجة بك إليها.

وأما إن كان من أصحاب النفس وأهل الوجدان، كالشعراء، فسوف يأتى لك بالعبارات الجميلة والصور الخلابة تثير نفسك وتمتع وجدانك. فإذا تنبهت لعقلك وجدته غائباً غير حاضر، والكلام يبعد عن عقلك قدر بعده عن الصدق والحقائق، ويبعد عن نفسك وعواطفك قدر بعده عن الخيال والطرائف.

قال : فلا يمكن الجمع بين الاثنين أبداً.

قلت : لن تجد كاتباً يجمع بين الاثنين ليعطيك الاثنين، فإذا حاول فأقصى ما يصل إليه المجيد أن يخاطب عقلك مرة، ونفسك ووجدانك مرة، أو أن يعطيك معنى لهذا يتلوه معنى لذاك. أما الذى لا يقدر عليه أحد أبداً أن يأتيك بالاثنين معاً فى الكلمة الواحد والجملة الواحدة والمعنى الواحد، فيجعلك تفهمه وتحسه وتراه فى الوقت ذاته بالعبارة الواحدة هى هى، لأنه لا سبيل لذلك إلا بأن يكون الكاتب ساعة أن يكتب موزعاً بين عقله ونفسه، مشتتاً بين الفهم والمتعة. وهذا الموزع المشتت – لو وجد – لن يصلك منه شىء، لأنه لن يخرج منه شىء، فهو مشلول تتجاذبه أجزاؤه ولن يكتب إلا بالقرار على واحد منها.

قال : ولكنى أرى القرآن تأتى فيه الآية بالأدلة المقنعة على الحقيقة الواقعة، ومع ذلك فهى هى جميلة مريحة ممتعة، ولا أحس معها بسأم ولا ملل، ولا هذا الانفصال بين العقل والنفس وبين الفهم والمتعة.

قلت : ذلك شأن القرآن وحده لا يشاركه فيه كلام سواه، وهذه عجيبة من عجائبه وإعجاز من إعجاز آياته.

الآية فيه تخاطب الإنسان وتدخل إليه من كل مداخله فى وقت واحد، فالإنسان معها كالقصر تتعد أبهاءه وأبوابه فتغزوه من كل أبهائه وأبوابه فى الوقت نفسه.

تنهد ثم قال: الآن فهمت وحُلّت المسالة. كل إنسان قصر منيف، النفس فيه بهو له باب، والعقل بهو له باب، والوجدان بهو له باب، والحواس بهو له باب.

قلت: وكلها تلتقى فى أعماقه؛ فى المنطقة التى تتحول فيها كلها إلى طاقة وقوة فاعلة يكون قدرها وأثرها بقدر تجانسها وائتلافها معاً. والإنسان لا يستطيع أن يمر من أبهاء قصره أو يخرج من أبوابها كلها فى وقت واحد.

قال: وإذاً فهو أيضاً لا يستطيع أن يدخل فيها ويمر منها عند غيره كلها فى آن واحد. بل لابد أن يخرج من باب واحد ليدلف من باب واحد.

قلت: إلا كلام رب البشر الذى لا تحده ولا تقيده قوانين كلام البشر، فالقرآن يخاطب الإنسان ويدخل إليه من عقله بالفهم والحقيقة، ومن نفسه بالراحة والسكينة، ومن وجدانه بالأثر والمتعة، ومن حواسه بالحضور والمتابعة ليستقر فى أعماقه؛ فى المنطقة الفاعلة ينبوع حركاته وسكناته وأفكاره وقدراته وأثره فيما حوله وتأثيره.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ** ﴾

[النور: ٣٩]

قال: هذا تمثيل وتصوير وتشبيه لحال الكافرين الذين عملوا الأعمال وظنوا أنفسهم قد ربحوا وفازوا، فإذا وصلوا إلى الله فجعتهم الحقيقة ووجدا الله بجلاله وحسابه أمامهم.

قلت: فهذا هو المعنى تفهمه وينفذ إليك من باب عقلك فتعرف المقصود منه وتجده هو الحقيقة. ولكن القرآن لم يضع لك ما يريدك أن تفهمه فى قالب مصمت جامد تدور فيه بعقلك لتصل إلى المعنى، فإذا وصلت إليه لم تجد نفسك معك ولا وجدانك، فقد تركتهما خلفك، ولا حواسك فهى غائبة مغيبة.

وإنما وضع لك القرآن المعنى فى صور مرئية ومشاهد متدفقة يتابعها البصر من مشهد إلى مشهد، وتنتقل النفس معها بانتقال البصر وتغير المشاهد والمواقف

من حالة إلى حالة انتقالاً يتسرب من النفس إلى الوجدان ينفعل به ويدفعك فى اتجاه المعنى الذى أراد لك فهمه.

قال: فتغزو الآية الإنسان من عقله وبصره ونفسه ووجدانه.

قلت: وتلتقى هذه المؤثرات من منافذ الإنسان وأبوابه فى منطقة واحدة تجمع عقل الإنسان إلى بصره، وتوحدهما بنفسه ووجدانه، فتجتمع بذلك كل طاقاته فى بؤرة واحدة.

قال: فتعطى الآية طاقة اندماجية تنسف كل الحواجز داخل الإنسان، وبها لا يفهم المعنى فقط بل يكون هو نفسه المعنى.

قلت: ويكون المعنى نفسه هو.

يقرأ القارىء الآية وفيما عقله يذهب فيما يعمل من أعمال لا معرفة فيها بالله ولا نية ولا قصد له، تعرض المشاهد أمام بصره فيرى نفسه وسط الصحراء فيشعر جفاف حلقه من الظمأ وتتشتت نفسه شعاعاً خوف الضياع والهلاك فيركبه الهم والخوف. ثم تضع له الآية مشهداً يرى فيه الماء كما كان يرى أعماله وما ظنه فيها من فوز فيحس الراحة والطمأنينة فى نفسه والفرحة فى وجدانه.

ثم يحس الجهد وهو يجرى تجاه الماء يحدوه الأمل وتسوقه الرغبة.

وفى الوقت الذى يصل عقله إلى نهاية أعماله فيجدها لا تغنى عنه شيئاً ولا تنفعه عند ربه ويجد الحساب العسير فى انتظاره، يكون العرض قد وصل ببصره إلى مشهد السراب ووقف عنده فيحس فى نفسه الحسرة، حسرة عقله على أعماله، وحسرة نفسه على فجيعة السراب بعد الماء. ومن حسرته يمتلئ وجدانه بالهم والكرب.

قال: فتتحد الخسارة فى عقله ومشهد السراب فى بصره مع الحسرة فى نفسه والهم والكرب فى وجدانه.

قلت: فلا يفهم فقط خسران هذه الأعمال، وإنما يرى هذا الخسران ماثلاً فى عينيه وحقيقته فى نفسه وأثره فى عواطفه.

أرأيت كيف يغزو القرآن الإنسان من كل أبوابه ويسرى فى جميع أبهائه ويوحد أجزاءه فيمزج عقله بنفسه وحواسه بوجدانه.

قال: والعجيب أن ذلك كله فى آية واحدة هى نفسها مزيج من الفهم والإقناع، وإثارة الحواس، والتأثير فى النفس والإمتاع، لا يمكن فصل شىء فيها عن شىء فكلها تتآلف فى نسيج واحد متجانس لا تستطيع العين تمييز خيط فيه عن خيط.

قلت: أو كأنها روافد يجمعها القرآن ويخلطها ماءً عذباً فى نهر واحد لا يمكن فصل رافد فيه عن رافد.

قال: فهذا هو سر أثر القرآن ؟! لا يخاطب العقل بما يسلب النفس راحتها أو ينفر منه الوجدان. ولا يخاطب النفس والوجدان بما يعسر فى العقل. ولا يخاطب العقل والنفس بما تغيب معه الحواس؟

قلت: نعم. فهو يخاطبها جميعاً فى الجملة الواحدة وينفذ إليها معاً ويؤثر فيها كلها معاً فى الآية الواحدة والمعنى الواحد.

تأمل هذه المقارنة والمقابلة البديعة:

﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الرعد: ١٦]، وقل لى: ما هو المعنى الذى يريد القرآن أن يوصله إليك وتفهمه ثم تقتنع به وتصدقه؟

قال: أرى المعنى فى المقابلة الأخيرة. فالقرآن يقابل بين الله الخالق وبين شركاء يدعونهم وهم لا يخلقون شيئاً ليصل إلى أن الله هو الذى خلق وحده فهو الذى يستحق العبادة وحده.

قلت: ولكنه لو جاءك بهذه المقابلة فقط، لترك عقلك فيصلاً فى الحكم وحده دون نفسك ووجدانك. وقد تكون راحة النفس وطمأنينتها وابتهاج الوجدان وسروره هى طريق العقل إلى الفهم. وفهم العقل دون قرار النفس ورضاها وابتهاج الوجدان وفرحته يكدر الفهم، ويشوب الاقتناع، ويجعل الإنسان موزعاً بين عقله ونفسه ووجدانه، أو على الأقل يكون عقله فى واد ونفسه ووجدانه فى واد آخر.

قال: لذلك أتى بهذه المقابلة بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور؟

قلت: ففي الوقت الذى يقارن فيه عقلك ويقابل بين الخالق وبين العاجزين عن الخلق فيفهم ويقر للخالق وحده بحق العبودية، تقارن وتقابل نفسك بين البصر يجلب الطمأنينة والسكينة والعمى يسكب فيها الخوف والضيق والنفور. وفي الوقت نفسه يشد المقابلة في العقل والمقابلة في النفس بمقابلة في الحواس بين الظلمات تتخبط فيها فتحمل لوجدانك الهم والحزن وبين النور تبتهج به وتنشرح.

قال: ففي الآيات نسيج من التقابل تتشابك خيوطه وتتناسق في صورة متكاملة، ففي جانب خيط من الوجدان نسجه البصر يجلب السرور والبهجة، يتداخل مع خيط من العقل يحمل الفهم والقناعة يشدهما معاً خيط من النفس فيه القرار والسكينة والطمأنينة.

قلت: وفي الجانب المقابل خيط من الهم والحزن يخرجه الظلام إلى الوجدان، يتداخل مع خيط من الحيرة والضيق في النفس، تتم الصورة فيهما بخيط من العقل واقتناعه بسفاهة ادعاء شركاء وهم عاجزون عن الخلق.

قال: فيكون فهم العقل واستيعابه لأحقية الخالق بالعبودية وراحة النفس وبهجة الوجدان في جانب، واقتناعه بسفاهة الشرك وضيق النفس والهم يملأ الوجدان في جانب.

قلت: فلا يملك الإنسان عندها إلا أن يكون في الجانب الذى فيه توحيد الخالق وحده، لا لأنه الجانب الذى فهمه عقله فقط ورضيه، ولكن لأنه الجانب الذى ترتاح وتطمئن فيه نفسه، وفيه يشعر بالبهجة والسعادة.

وبذلك لا يجعل القرآن الإنسان يفهم المعنى وفقط وإنما يجمع الحواس والنفس والعقل والوجدان ويوحدها معاً، فيصبح الإنسان صورة حية يتجسد فيها المعنى ويتحول إلى طاقة دافعة وقوة فاعلة في كل ناحية منه.

قال: تعرف! إن من أمتع ما في هذه المقابلات هذا التناظر والتناسق بين

الأجزاء فى كل مقابلة والخيط الذى يربط كل مقابلة بتاليتها. بدأ هذه المقابلات بالنفس، ثم الحواس والوجدان، لتكون طريقاً ممهداً يصل به العقل إلى الحكم الصحيح.

قلت: فالنفس تطمئن بالبصر، والوجدان ينشرح برؤية النور، فيتسرب الاطئمنان والانشراح والبهجة إلى العقل وهو واقف أمام الخالق، فيقر بأحقية العبودية والكمال لله عز وجل وهو يحس راحة الحكم فى نفسه وجماله فى جوانحه. وفى المقابل تضيق النفس بالعمى ويتقيد البصر بالظلام، والوجدان بالهم، فيسرى الضيق والقلق والهم إلى العقل والآلهة العاجزة المدعاة أمامه، فتدفعه نفسه ووجدانه وحواسه إلى الضيق والنفور منها، فى الوقت الذى يكون عقله متأهباً للحكم بعجزها وعدم صلاحيتها للألوهية.

قال: فتتوحد كل ملكاته ووسائله فى حكم واحد قبولاً ورفضاً.

قلت: وإنّ فى هذا الترتيب للمقابلات تناسقاً وتجانساً بديعاً آخر يضع الإنسان أمام خيارين لا يملك معهما إنسان إلا أن يكون فى جانب الألوهية الحقة.

قال: كيف؟

قلت: من فتح عينيه وأبصر يرى النور فيدله ويهتدى به إلى الإله الحق، ومن عمى لم ير إلا الظلام يتخبط فيه ويضل الطريق عن الإله الحق إلى الآلهة العاجزة، فمن أراد وكان مبصراً فلن يكون إلا فى جانب الألوهية الحقة الخالقة.

قال: ومن استوى عنده العجزة مع الخالق فهو يشهد على نفسه بالعمى.

قلت: فالمعانى تتعدد، وهى تتعانق وتلتف معاً.

قال: والعجيب أن الآية نفسها واحدة متوحدة يلتف فيها المعنى العقلى بالصورة البصرية والأثر النفسى والوجدانى فلا يمكن فصل أحدها فيها عن الآخر، ولا الاستغناء به عن غيرها. بل ربما لا يفطن الإنسان إلى هذا الاندماج فى المؤثرات وهذا الامتزاج فى الأثر.

فلو أن أحداً أراد أن يحاكى هذه المؤثرات ويصل إلى هذا الأثر لتاه وحار من أى جهة ينظر، ومن أى مدخل ينفذ، وكيف يختار العبارة تحتوى ذلك كله وتنسجه فى نسيج واحد، ثم كيف يكون هذا النسيج فى تمامه وإتقانه، وحسنه وجماله هو الحقيقة أو الحقيقة هو.

قلت: ذلك هو النسيج الربانى. فهيهات هيهات!

* * *

قلت: أين أنت؟

قال: ها أنا ذا. خذ فاقرأ.

قلت: اقرأ؟! ماذا؟!

قال: اقرأ صدر سورة مريم.

قلت: لماذا؟

قال: اقرأ فقط واصبر.

قلت: كما تريد.

﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا

يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ١ ــ ١٥] .

قال : كفى ، قف الآن .

قلت : ها قد وقفت فماذا بعد ؟

قال : ألا تجد شيئاً غريباً فى هذه الآيات ؟

قلت : شىء غريب ! ! لا أراها إلا رائعة الجمال تمتلىء بالموسيقا فى هذه الفاصلة اللينة تبعث أنغاماً رخية هادئة تخرج من الأعماق ، وتتناغم مع جو الضراعة فى الآيات .

قال : ألا يثيرك شىء فى الزمن الذى تتحدث عنه الآيات .

قلت : هو زمن بعيد وتاريخ سحيق ، آلاف السنين .

قال : ذلك لأنك تعرفه .

قلت : لأنى أعرفه ؟ !

قال : مازالت لا ترى ما رأيته من غرابة هذه الآيات . أنا ألتمس لك العذر فقد أحسست هذه الغرابة فيها ، وشىء مبهم غير مألوف يشع منها أراه فى نفسى يذهب ويجىء ولا أعرف ما هو ولا كيف ينبعث ، ولم أهتد إليه إلا حين وضعته إلى جوار القصة نفسها فى إنجيل لوقا .

قلت : شوقتنى إلى اكتشافك هذا الغريب .

قال : سأقرأ لك أنا هذه المرة ، فتأمل الزمن فيه والمسافة بينك وبينه . هات إنجيل لوقا .

قلت : ها هو .

قال : « فبينما هو يكهن فى نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت

أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت، وامرأتك إليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته.. فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا لأني شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها.. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل.. ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته.. وبعد تلك الأيام حبلت إليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر.. وأما إليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً.. وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا فأجابت أمه وقالت: لا بل يسمى يوحنا».

قال: ها ما رأيك الآن؟

قلت: ما رأيي؟! وهل هذه الركاكة تصلح لأن توضع إلى جوار آيات القرآن الحية الرائعة؟ أتريد أن تضع هبوب الخماسين إلى جوار النسيم العليل ثم تسألني عن رأيي؟

قال: دعك من هذا فلست بحاجة إلى أن تذكرني به، تأمل الزمن. الزمن في هذا الحكي والزمن العجيب في القرآن. إني اقرأ هذه الحكاية فأحس فاصلاً وحاجزاً زمنياً بيني وبين الأحداث التي تُروى، فهي بزمنها منفصلة عني. هي في جهة زمنية وأنا في جهة زمنية أخرى.

قلت: وما الغريب في هذا؟ هذا حدث من آلاف السنين يحكي فتعرف فيه التاريخ – صادقاً كان أو كاذباً – ولابد أن تحس انفصاله الزمني عنك، فهو في زمن وأنت في زمن. أنت في الحاضر وهو يدور ويُروى لك من الماضي.

قال: فهذا هو وجه الغرابة الذي وقع في نفسي وأحسسته غامضاً وأنا اقرأ آيات القرآن ولم أضع يدي عليه إلا حين قرنته بالحدث نفسه في الإنجيل.

ثم لمعت عيناه وانتصب بقامته وقال: لا يوجد حاجز زمني ولا فاصل

تاريخي بين آيات القرآن ومن يقرأها. فالقرآن يقص حدثاً من آلاف السنين أشعر وكأنه يقع في اللحظة الراهنة، لحظة قراءته. فأنا في زمن الحدث أو هو في زمني أو كأننا معاً في دائرة واحدة خارج الزمن وفوق التاريخ.

قلت: إنه لإحساس مرهف وملاحظة بارعة.

قال: ومع ذلك فهي الحقيقة لا ريب فيها. والعجيب أنني أردت التأكد من ذلك وقلت: ربما وهمت أو أوهمت نفسي فوجدت ذلك مطرداً في كل آيات القرآن.

قلت: في كل آيات القرآن؟!

قال: نعم. انظر. ثم التقط المصحف من أمامه وراح يقلب فيه:

هذه قصة نوح عليه السلام: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾

[هود: ٣٨ -٤٦].

هذا حدث من آلاف وربما عشرات الآلاف من السنين، ومع ذلك القرآن يعرضه فإن لم يكن من يقرأ يعلم زمن القصة السحيق وتاريخها الهائل البعد من

خارج القرآن لما علم أنها تاريخ ولا شَعَر أن تلك أحداث حدثت فى عهود سحيقة من الزمان. بل ربما تصور أن هذا حدث ينقل إليه فى لحظته.

قلت: معك حق. إنها فعلاً لشيء عجيب ومعجزة غريبة، الحدث وقارئه يتوحدان فى زمن واحد يحتويهما معاً بلا فاصل بينهما.

قال: تعرف! تركت الإنجيل إلى كتب التاريخ القديم والحديث فازداد الأمر وضوحاً وازداد معه غرابة. فإن أحداث التاريخ التى يرويها المؤرخون وقعت من عشرات السنين أو مئاتها تبدو بعيدة سحيقة فى جوار أحداث القرآن تفصلها عنا آلاف وآلاف السنين لا نشعر بها ولا نراها، وإنما كأننا معها وقت حدوثها. إن هذه المفارقة الزمنية كادت تذهب بعقلى، أحداث التاريخ القريب غائرة، وأحداث القرآن المخبوءة فى أغوار الزمن حاضرة.

قلت: فالقرآن يطوى الزمن ويذيب التاريخ؟

قال: إن بناء الكعبة فى دعاء إبراهيم ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٧]، لو لم أكن أعلمه من كتب التاريخ وتقديرات الأثريين – والكعبة شاهدة قائمة – حادثاً يفصلنى عنه ما يقرب من أربعة آلاف عام لما ورد إلى عقلى ولا أحست نفسى إلا أنه يحدث الآن ويقع فى التو واللحظة ينقل على الألفاظ مباشرة. فأين السر فى ذلك؟

قلت: نعم أين السر؟

قال: لقد اهتديت إلى بعضه وإن لم أصل إليه كله.

قلت: فما الذى وصلت إليه؟

قال: لا توجد فى آيات القرآن تواريخ ولا أزمنة، ولا حتى أو صاف تتعلق بالزمن والتاريخ وتدل عليه مباشرة. فالآيات منزوعة الدلالات الزمنية. وحتى إذا وجد فيها إشارات وإلماعات إلى تواريخ الأحداث وزمان وقوعها، فإنها تكون

مخبوء فى الألفاظ، مطوية فى المعانى، متلبسة فى الصياغة لا يمكن رؤيتها ومعرفتها إلا بقصد العقل مباشرة لها يبحث وينقب عنها هى، فى الوقت الذى يكون عالماً بها من خارج القرآن، فيهتدى بما يعلمه من خارج القرآن إلى المخبوء فى آياته. وغير ذلك لا زمان ولا تاريخ.

قلت: إذاً فهذا هو الذى يدمج القارىء فى المقروء ويوحد التالى بالمتلو ويجعل زمنهما واحداً، الماضى فى الحاضر، والقارىء داخل زمن الحدث أو هما معاً - كما قلت - خارج إطار الزمن وفوق نطاق التاريخ.

قال: والعجيب أن يستوى فى ذلك ما حدث وما سوف يحدث.

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف: ٤٩].

لا تحس أبداً أن ذلك حدث لم يقع ولا تعرف متى سيقع، بل كأنه واقع يحدث فى وقت قراءته وزمن قارئه.

قلت: تعرف! ربما كانت هذه الظاهرة العجيبة التى يخرق بها القرآن فى روايته للأحداث حاجز الزمن ويوحد بين القارىء وما يقرؤه هى هدفه، وتفسيرها فى أسلوبه المعجز وتصويره الفنى للحدث.

قال: كيف؟

قلت: أولاً: القرآن هدفه أن ينقل إليك الحدث ويجعلك تعايشه وتكون بطلاً من أبطاله تشارك فيه، فيأتى لك بالحدث مجرداً من كل الدلالات الزمنية والتاريخية إلا الخفية منها، فيجعل الحدث بذلك خارج الزمن لا يؤثر فيه، وفوق التاريخ لا يتراكم فوقه. فالأحداث فيه بلا زمن والتاريخ محايد.

قال: فلذلك يبدو الحدث وكأنه لم يقع، بل كأنه واقع دائماً فى اللحظة التى يقرأ فيها. فالحدث يتجدد ويتكرر مع كل قراءة له، مهما أعاده القارىء لا يحس أن زمانه قد مضى وانقضى؟!

قلت : وثانياً : هدف القرآن ليس أن يسجل أحداثاً تاريخية . بل أن تستخلص أنت المعانى الكامنة فيها وتعتبر منها وترى نفسك فى مرآتها . لذلك يضع لك الحدث ويصفه لا وصف الحكاية تتسلى بها وإن أمتعتك، ولا وصف التاريخ تحس بعده عنك فتنفصل بذاتك ونفسك ووجدانك عنه .

قال : آه! وعندها سيولّد الحاجز الزمنى والانفصال التاريخى حاجزاً نفسياً، وانفصالاً وجدانياً وعقلياً عن الحدث وابطاله وما يدور فيه .

قلت : فيصبح ما يحكمهم من قانون ومصائر غير ما يحكمك، وما يسرى على زمنهم ويليق به غير ما يلائم زمنك ويسرى عليك . فيصف القرآن الأحداث وصفاً خاصاً ينفرد به ولا يشاركه فيه وصف آخر .

قال : الوصف القرآنى .

قلت : نعم! الوصف القرآنى، يزيل الزمن ويطوى التاريخ، فينسف الحواجز العقلية والنفسية والوجدانية بين القارىء والحدث، فيصبح زمن القارىء زمن الحدث، وأبطاله وما يحكمهم يحكمه، وما يسرى عليهم يسرى عليه، ومصيره مصيرهم إن شابه فعلَهم فعلُه .

قال : فكأن القارىء ليس فى دائرة زمن ما يحدث فقط ولكن أفعاله أيضاً خاضعة لما تخضع له أفعال أشخاص ما يوصف : أثرها وما يترتب عليها؟

قلت : تماماً .

قال : فإلغاء الاشارات إلى الزمن والدلالات على التاريخ يزيل الحاجز الزمنى والانفصال التاريخى، ويجعل الحدث يقع وقت قراءته، لكنه لا يفسر وحده كيف يدخل القرآن القارىء فى دائرة زمن الحدث ويُخضعه لقانون أشخاصه ومصائرهم فى لحظة متجددة دائماً .

قلت : يفسر لك ذلك كله أسلوب آيات القرآن المعجز فى صياغة الحدث ووصفه وتراكيب القرآن التى ينفرد بها، وإعجازه فى تناسق وإحكام هذا كله فى تجانس يصل به إلى محو الزمن وإدخالك فى الحدث وإشراكك فيه .

قال: قف ولا تستطرد فى هذا الكلام المبهم فأنا أريد أن أفهم.

قلت: لو تأملت الآيات التى ذكرت وأخرى غيرها كثير لوجدت أول طريقة يزيل بها القرآن حاجز الزمن هى تغيير أزمنة الأفعال والوقائع.

قال: لا أفهم شيئاً.

قلت: فى قصة نوح عليه السلام يحدثك عن الماضى السحيق، فلا يقول لك: إن نوحاً عليه السلام صنع الفلك وانتهى الأمر، وإنما ﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ** ﴾، فصناعة الفلك تحدث أمام عينيك، والفلك ﴿ **تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** ﴾ الآن، فبذلك يضع لك الحدث وكل تفاصيله فى زمنك بنقل ذهنك ونفسك بهذا التغيير من الماضى إلى المضارعة والحاضر، فلا يمكنك أن تعرف أو أن تحس إلا أن هذا حدث يقع فى لحظة ذكره.

وفى قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا يخبرك بصيغة الماضى أنهما عليهما السلام وضعا القواعد. بل ﴿ **يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ** ﴾ الآن، والرفع يتجدد كلما قرأ قارىء أو تلا تالٍ. فهو خارج الزمن، ولا يمكنك أن تعرف أو تحس بالزمن الذى رُفعت فيه القواعد وتنفصل عنه إلا إذا وقفت وتركت القراءة وقسرت ذهنك على استحضار زمن الرفع من خارج القرآن.

وحين يحدثك القرآن عن المستقبل وأحداث الغيب لا يقول لك «س» و«سوف» و«عندما» و«حينئذ»، وإنما يضع لك الحدث الذى لم يحدث ولا تعرف متى سيحدث فى صيغة الماضى.

﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ [الكهف: ٤٩]

﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١].

قال: نعم. ولكن المجيء بالمستقبل في صيغة الماضي هو لتأكيد وقوع ما يخبر عنه. لأن الله هو المخبر، وما يخبر الله عنه أنه سيقع فهو في حكم الواقع.

قلت: هذا صحيح ولكن ليس فقط. وإنما القرآن يمحو الزمن بينك وبين الأحداث التي ستقع ويدخلك دائرة زمنها ووقت وقوعها، فيستخرج لك الحدث من الماضي ليقع أمامك، ويسحب لك ما سيحدث من المستقبل إلى الماضي: ماضيه هو وحاضرك أنت.

قال: فتصبح الأزمنة كلها زماناً واحداً هي زمن القراءة، وتفقد الأحداث تاريخها وتقع وقت وصفها.

قلت: فذلك إعجاز في وصف الأحداث يزيل الفوارق الزمنية بينها. وهو خصيصة فريدة من فرائد القرآن يخرق بها حاجز الزمن ولا يستطيع كلام أن يقاربه فيه.

فلو أراد أحد وصف قصة وقعت أو تصور حدث سيقع، لقيده تاريخ القصة وكبله زمن الحدث، فما يمكنه أبداً أن يخرق قانون الزمن، ولا أن يخرج عن قيد التاريخ ولو حاول لما وجد ما يقوله كلاماً، وإنما هو إلى الهذيان أقرب.

قال: فهذه واحدة! تحضر الحدث من الماضي أو المستقبل إلى زمن القارىء، ولكنها لا تفسر اندماجه في زمن الحدث ومشاركته فيه.

قلت: فالثانية: يذيب الزمن بينك وبين ما يحدث ويُشركك فيه أن القرآن لا يخبرك بالأحداث ويرويها لك رواية غيب، ولا يصف لك حركات أبطال الحدث وأشخاصه ولا ينقل لك ما قالوه في غيبتهم. وإنما الأحداث تقع هي أمامك، والأبطال والأشخاص حاضرون، هم الذين يتكلمون ويتحاورون ويتجادلون، وهم الذين يتحركون ويقولون ويفعلون، ويذهبون ويجيئون،

ويرضون ويغضبون، ويؤمنون ويكفرون فى عرض متواصل ومسامع ناطقة ومشاهد متحركة.

قال: قف.. قف! تمهل قليلاً! أريد أن أرى ذلك بنفسى.

قلت: اقرأ مثلاً قصة موسى وهارون مع فرعون فى سورة طه:

أمسك المصحف وأخذ يقلب فيه ثم قال: ﴿ **قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى** ﴾

[طه: ٤٥ –٥٢].

قلت: توقف. يكفى هذا فانظر إلى بداية الحوار بين الله عز وجل وبين موسى فى طور سيناء، يأمره عز وجل أن يذهب إلى فرعون ويبلغه ﴿ **فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ** ﴾، ثم فجأة وأنت تترك حرفاً إلى حرف لتقرأ الآية التالية يتغير المشهد، وتجده قد انتقل فى لمح البصر من طور سيناء إلى قصر فرعون، وانتقل معه الحوار وتبدلت أطرافه، ودخل آخر الحوار السابق فى أول الحوار اللاحق بيسر وخفة لا تلحظه معهما. ثم يتركك القرآن مع موسى وفرعون يتحاوران ويتصارعان وأنت معهما شاهد عليهما فى المكان والزمان. فأبطال الحدث هم أنفسهم حاضرون لا غائبون، فرعون هو الذى يكابر ويعاند فى لجاجة، وموسى هو الذى يرد ويحاجج.

قال: فأشخاص الواقعة هى التى تتحدث وهى التى تجادل وهى التى تهاجم وتدافع وهى التى تعطى ما فى نفسها.

قلت: نعم. فلا راوٍ يفسد عليك متابعة الحوار الحى الساخن لتعرف إلى أين ستصل هذه المصارعة الكلامية. لا توجد «حينئذ»، ولا «فرد عليه قائلاً»، ولا «لما قال له ذلك»، ولا «فتطور الأمر إلى»، ولا «فلما أحس فرعون الهزيمة».

فالحوار على لسان أصحابه، ولا شيء يخرجك من دائرة ما يحدث ويفصلك عنه، بل كأنك حاضر في قصر فرعون تنظر يميناً فترى موسى فيرد عليه فرعون فتلتفت ببصرك ونفسك يساراً لتتابعه، وهكذا يتحاوران هما وأنت الحكم الشاهد بينهما.

قال: فهذا الحوار الناطق على لسان أصحابه إحضار لهم من طوايا الزمن أو سفر بالقارىء في الزمن إليهم.

قلت: أو هما معاً بلا زمن، فتصير القراءة هي الحوار، ويظل الحوار مستمراً قائماً مادامت هناك قراءة.

قال: الأحداث تقع بالقراءة والقراءة هي الأحداث.

قلت: وليس فقط، وإنما يشحن القرآن الأحداث التي تقع في القراءة بالحركة والتطور والمفاجآت والانفعالات النفسية لأبطالها، فيستغرق حواسك ونفسك وعقلك فيها، فينقلك إلى مكانها ويدخلك في زمانها ويجعلك بطلاً من أبطالها.

قال: كيف؟

قلت: تأمل قصة نوح عليه السلام التي ذكرتها واقرأها بعناية فستجد أن أحداثها مثيرة ملئت بالحركة وتغيير المشاهد والصور البصرية والانفعالات النفسية والأحكام العقلية، في عبارات قصيرة متتابعة متدفقة كتدفق الماء المتفجر من الأرض والمنهمر من السماء. فلا يمكن أن يكون بينك وبين أحداثها فاصل من الزمن أو حاجز من التاريخ لأنك ترى ما يحدث وتسمع ما يقال، والإثارة الكامنة في الوقائع تجعلك مشدوداً إلى ما سوف تنتهي إليه.

ونفوس أبطال الحدث لا توصف لك انفعالاتها وتقلباتها، بل تراها شاخصة مجسدة على لسان أبطالها وأفعالهم الحاضرين في الحدث تربط نفسك بنفوسهم.

فأنت وأي قارىء يجد نفسه كله داخل الحدث، ولا يمكن أن يحس زمنه غير زمان ما يحدث أمامه ويشعر به ويراه إلا أن يقف ويفصل نفسه فصلاً قسرياً عن الأحداث ويُخرج نفسه بالقوة من مركز جذبها ودائرتها.

قال: إن الأحداث فعلاً لمثيرة متحركة مملوءة بالتوتر والترقب، وبالشجن والأسى، فنوح عليه السلام يصنع الفلك وقومه يسخرون منه فلا يملك من أمره شيئاً إلا أن ينذرهم. وفى انتقالة خاطفة يتحرك المشهد من الحوار بين نوح وقومه إلى السفينة يحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهله لتجرى باسم الله إلى مرساها. وفى وسط انفجار المياه وانهمارها تغمر كل شىء يأتى هذا المشهد النفسى المؤثر: أب يرى ابنه يوشك بعناده على الغرق فيرق له - وهو النبى - رقة الأب لابنه فيتحننه ﴿ **يابنى** ﴾. وإكاد أراه أمامى عيونه دامعة يتوسل إلى ابنه ويرجوه: ﴿ **ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ** ﴾.

قلت: فترى أمامك فى الجهة الأخرى قمة الإثارة والشجن النفسى: الأب يتوسل ويرجو، والابن الجاحد يعاند ويكابر.

قال: ثم هذا المشهد الرهيب: الأب مازال يتوسل، والابن مازال يعاند، والحوار مازال ممتداً، ثم تأتى موجة لتنهى الحوار وتغلق صفحته وتطوى الابن المعاند فى غياهبها. فيا أسفا على نوح! ويا لحزنه وفجيعته!

قلت: فما تشعر بنفسك إلا وأنت تمد يدك إلى هذه الموجة تحاول أن تدفعها، أو إلى هذا الابن تنزعه من الجبل إلى الفُلك رحمة بقلب أبيه المكلوم.

ثم، وفى خمس جمل قصيرة متتابعة، ترى القدرة الإلهية القاهرة فى الحدث وفى وصفه: الماء المنهمر يتوقف، والمتفجر يسكن، والأرض تفتح فمها لتبتلع الماء، ويستقر نوح بسلام الله وبركته عليه وعلى من معه على مرساه.

قال: فما تُلهى السلامة والنجاة الأب عن فجيعته فينادى ربه نداء الأب الضارع الباكى يملأه الأسى ﴿ **رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** ﴾.

قلت: وينادى ربه نداء الأب النبى لا يجعله أساه وفيجعته فى ابنه يضيق بقضاء ربه أو يراجعه فيه. وإنما يتضرع إليه عز وجل آملاً فى وجل، وسائلاً فى رضا، وشعاع واهن من رجاء يتسلل من أبوته أن عسى أن يكتب الله النجاة لابنه فى الآخرة وقد خسرها فى الدنيا. فيعلمه ربه أن طاعة الله فوق النسب، وأن صلة الأنبياء بأنسالهم العمل.

قال: إن الأسى ليملأنى والحزن ليفتت كبدى وقلبى لينفطر إشفاقاً على هذا الأب المكلوم يرى ابنه يضيع امام عينيه بعناده وكأنى معه أقف إلى جواره فى الفلك.

قلت: فهذا هو الاعجاز الربانى، الحركة والتدفق والإثارة والصياغة النفسية الحية تجعلك تأسى وتحزن وينفطر قلبك وأنت تتابع أحداثاً تراها وتعيش فيها وكأنها تحدث الآن، أو كأنك سافرت فى الزمان إليها، أو كأنكما معاً خارج نهر الزمن.

قال: تعرف! إنى لأقرأ القصص والروايات فأجد بعضها أخاذاً، وقد تكون أحداثها مثيرة أو بناء أشخاصها النفسى عميقاً ومؤثراً، وقد أنفعل بالأحداث وأرتبط بأبطال وأشخاص فيها وأشاركهم رؤاهم ومواقفهم. لكنى ما رأيت قصصاً يضع المرء داخله ويجعله يشارك فيه بحواسه وعقله ونفسه ويمحو الحواجز بينه وبينه، فلا زمان ولا مكان ولا انفصال لذات القارىء عن المقروء، بل اندماج وتوحد، لم أر ذلك إلا فى القرآن.

قلت: والأعجب من ذلك أن القرآن قد يأتى لك بالأحداث متقلبة سريعة خاطفة حية مليئة بالإثارة والترقب ثم يضعك فيها ويجعلك ركناً فى الصورة وجزءً مما يحدث.

قال: كيف؟

قلت: بأن يخاطبك داخل الحدث.

تأمل هذا المشهد الكونى الهائل:

﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** ﴾ [الإنفطار: ١ - ٥].

قال: فذلك يوم القيامة، والكون كله فى انقلاب عنيف، وهزة الأمر الإلهى تجتاحه فتنسف قوانينه وتكتسح أجزاءه. فالسماء تنشق، والكواكب تفقد نظامها وتتناثر فى مهب الزلزال الكونى، والبحار تتفجر، والقبور تتبعثر.

قلت: فهذه الصورة الرهيبة للانقلاب الكونى تستحوذ على عقلك،

ومشاهد السماء وهى تنشق، والكواكب وهى تتناثر، والبحار تفور وتتفجر، والقبور تتبعثر وتخرج ما فيها تأسر بصرك فيها، ونفسك مأخوذة من هول ما يحدث.

قال: إنه لانقلاب وهزة تصيب المرء بالذهول ولا يملك إلا أن يقف أمامها مشدوهاً مبهوتاً.

قلت: وبينما أنت فى ذهولك بما يحدث ونفسك وبصرك فى الحدث، تفيق من ذهولك ويخطف سمعك ونفسك صوت الحق يناديك من جنبات الكون المتصدع: ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الإنفطار: ٦ – ٨].

قال: ياللهول!

قلت: فتدرك عندها أنك لم تكن خارج ما يحدث، ولا أنت كنت واقفاً أمامه تراه وتتأمله، وإنما أنت واقف فيه، السماء والنجوم والبحار والقبور حولك أصابها زلزال الأمر الإلهى فأطاح بها، ثم جاء دورك بعدها. وزلزالك فى سؤالك، وسؤالك هو الانقلاب الذى يصيبك.

قال: فكأن سؤال الإنسان هو تمام المشهد الكونى.

قلت: تماماً، فالسماء تنفطر، والكواكب تنتثر، والبحار تفجر، والقبور تبعثر، وأنت تُسأل. فأنت جزء مما يحدث يحتويكما أمر واحد وزمان واحد، أو لا زمن.

قال: إنَّ جلدى ليقشعر من هذا الهول. فإذا كان السؤال للإنسان هو الانفطار والانتثار والتفجر والبعثرة للكون فإنه ليس بسؤال ولكنه.. ثم صمت فجأة وبسرعة خاطفة نهض واتجه إلى الباب ثم استدار بوجهه إلىَّ وقال: إنى منصرف.

وفتح الباب ومضى.

* * *